كريم مروة : خطوة إلى الأمام ... خطوتان إلى اليسار

كمال اللقيس
كاتب (لبنان)

إذا ما اتفقنا على أن وجود اليسار هو ضرورة موضوعية وحاجة وطنية قومية وعالمية، جاز الحديث والبحث عندئذ عن نهضة جديدة أو عن مفهوم جديد لليسار. ولأن شبح السقوط المدوي لما كان يسمى اصطلاحاً بالتجربة الإشتراكية المنجزة، ما زال وسيظل يخيم على العالم إلى أمد غير منظور، سيبقى هاجس الخروج من المأزق نحو أفق يساري ما، يكتسب مشروعية راهنة ومستقبلية.

كريم مروة، ذاك المفكر الشيوعي الذي يهجس دائماً بالجديد ويواكب حركته، الذي عارك وجادل في شأن اليسار وناضل في سبيله، يقدم مساهمة في هذا المجال من خلال كتابه الجديد «نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي» الصادر عن دار الساقي ٢٠١٠، والذي يضم في دفتيه قسمين.

يتناول القسم الأول عدة مواضيع نذكر منها: اليسار في العالم العربي وتحولات العصر، الأزمة المالية العالمية الجديدة، نحو نظام عالمي جديد، المرتكزات الأساسية في مشروع التغيير باسم اليسار.

ويضم القسم الثاني نصوصاً منتقاة من ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف وروزا لوكسمبورغ وغرامشي.

وقبل الولوج في مناقشة الكتاب أظن بأن هذه العجالة لن تفي القسم الثاني منه

حقه من البحث النظري المعمق للماركسية عبر ممثليها الكلاسيكيين، فهو قد يشكل مادة لمقال ثان في المستقبل من الأيام. مع التشديد على العروة الوثقى بين جزأيّ الكتاب:«إن ثمة تواصلاً دائماً بين أحداث التاريخ الكبرى، والأفكار التي تولد في رحمها أو تسهم في صنعها، وأن الجديد من الأحداث الكبرى ومن الأفكار المتصلة بها إنما تولد من ذلك القديم، ويتخذ له بعد الولادة كياناً مستقلاً وسمات خاصة في شروط عصره...» (المقدمة، ص٩).

وبقدر ما يبتعد المرء عن إطلاق أحكام حتمية وعن استخدام عبارات حاسمة، بقدر ما يقترب من العلمية أكثر. وبقدر ما يتحرر اليساري الشيوعي من ثقل التجربة الماضية مع عدم القطع معها نهائياً، بقدر ما تنضج يساريته وتتفتح. وفي هذا الصدد- وعبر اللغة غير القطعية-، أزعم بأن الكاتب عمد ونجح في استدراج المتلقي اليساري تحديداً إلى ملعبه، وتواطأ معه إيجابياً وضمنياً على بلورة مشروع يساري مستقبلي من خلال اختبار مادة الكتاب ومناقشتها. أما الشرطان الضروريان لتحقيق هذا الهدف فمتوفران:

١- هاجس الكاتب وقلقه على مشروع اليسار

٢- توخي الدقة والموضوعية في طرح المشكلة للأزمة.

ويبدو أن الكاتب قد أفاد من خبرة الأيام وتجارب التاريخ، فجاءت أفكاره الأساسية نهضوية أي منسجمة مع عنوان كتابه وهي تلخص بالتالي:

أولاً: تجنب الصيغة التقريرية وهذا ما ظهر في السطر الأول من الكتاب: «هذا الكتاب هو محاولة مجرد محاولة... وهي أفكار أحاول فيها وبإسمها الإسهام في تقديم تصوّر جديد لليسار..». ويضيف مروة: «أما الهدف الثاني فهو استكمال معرفة أو محاولة معرفة ما توصل إليه ماركس..» (ص ٨). وفي موقع آخر، ينبه القارئ «إلى أنني

لا أدعي في هذا التقديم للكتاب، وفي الكتاب ذاته، أنني سأقدم إجابات عن الأسئلة الكبرى التي تطرحها الأزمة الراهنة لليسار. كلا قطعاً» (ص ١٠).

ثانياً: التحرر من عبء الأيديولوجيا في قراءة التجربة الفاشلة. وهذه خطوة جد جدية في الإتجاه الصحيح: «أما الشرط الثاني فهو أن تقوم هذه القوى الجديدة لليسار خصوصاً بقراءة غير أيديولوجية، أي من دون أفكار مسبقة، قراءة تتميز بقدر عال من الدقة والعمق والموضوعية... والوظيفة الأساسية لهذه القراءة هي تقديم العناصر التي يمكن هذا اليسار الجديد أن يستند عليها في تحديد أهدافه الملموسة بواقعية، وفي تحديد وسائط نضاله بواقعية أيضاً، من أجل تحقيق هذه الأهداف» (ص ٩). وللتدليل على صحة هذا الزعم أحيل القارئ الكريم إلى ما قاله يوماً لويس ألتوسير بأن أدلجة ماركس أماتته كفيلسوف وكإقتصادي فذ.

ثالثاً: الإلتفات إلى الجوهر الفعلي لنضال اليسار، إلى النواة الإجتماعية، أي إلى الإنسان الذي ظلم وغُيِّب في التجارب التاريخية السابقة «... إلا أن لنضالنا الجديد.. أشكالاً جديدة، علينا أن نحددها بدقة وبواقعية آخذين في الإعتبار مبدأ أساسياً يتصل بالإنسان وبحريته وبحقه الأساسي في الحياة، أي أن علينا أن نتجنب في نضالنا الصعب القادم.. الإستهانة بحقوق الإنسان والإستهانة بحياته...» (ص ١٩).

ولأن مشروع اليسار لا يتحقق بإيعاز من قوى مما فوق طبيعية، أو من خلال أحلام طفولية ورغبات بشرية مشروعة، ولاستكمال حلم ماركس في التغيير، فإن على اليسار أن يعي بأنه لا يتحرك في الفراغ، بل أن نضاله سيكون بالغ التعقيد والصعوبة» (ص ٢٧).

ومع اقتراب الكاتب من ملامسة لب القضية، أي نهضة اليسار، نراه ينفض عن كاهله ما علق به من تميمات وإسقاطات ويقينيات لطالما كبلت اليسار الماركسي

وجعلته أسير قراءة صنمية للماركسية أفرغتها من روحها أي من جدليتها «التي تحترم اختلاف المراحل واختلاف الشروط التاريخية بين مرحلة وأخرى واختلاف المهمات» (ص٥٦). أعتقد أن الكاتب هنا يلهج بلسان حالي وحال الكثيرين الحريصين على نهضة اليسار من كبوته لا بل سباته: «مهمة اليسار الجديد في هذا الظرف التاريخي بالتحديد هي العمل على تحديد دقيق وواقعي للأهداف الممكنة التحقيق، الأهداف التي تتصل بنقل بلداننا من حالتي التخلف والإستبداد ووضعها على طريق الحرية والتقدم واحترام حقوق الإنسان وإدخال القوانين الديمقراطية إلى مؤسسات دولها التي تجعلها جزءاً من العصر ومن تحولاته» (ص٥٤).

«لكنني وأنا أتحدث هنا كإشتراكي بحكم انتمائي التاريخي إلى الإشتراكية، بت أختلف في أمور جوهرية مع عدد غير قليل من مفاهيم ماركس التي شاخت وصارت جزءاً من الماضي وتغيرت علاقتها بالعصر. الإ أن اختلافي هذا مع تلك المفاهيم لا يلغي ارتباطي الأساسي بما حلم به ماركس... على امتداد حياته، من تأكيد على أن الإنسان الفرد والإنسان الجماعة، هو جوهر الحياة وهدف التقدم في كل ميادينه».

وحسناً فعل الكاتب –قبل تقديم مقترحاته لنهضة اليسار– عندما حدد مفهومه لليساري اليوم: «اليساري، إذن، يمكن أن يكون متأثراً بأفكار الإشتراكية منذ ماركس حتى اليوم، ويمكن أن يكون عضواً في حزب اشتراكي، أو شيوعي، أو في حزب قومي متأثر بالإشتراكية. ويمكن أن يكون ديمقراطياً بالمعنى الواسع للمفهوم. لذلك فاليساري الذي أتوجه إليه في هذا البحث... هو... الذي يريد لبلده الحرية والتقدم اللذين لا يمكن تحقيقهما إلا بالنضال لإحداث تغيير جوهري في الوضع القائم» (ص٦٦). ويعتقد الكاتب «بأن الوظيفة الأساسية في تقديم

القضايا الآتية الذكر كبرنامج لليسار الجديد هي تسليط الضوء على الواقع القائم، وإثارة النقاش حوله من أجل خلق وعي جديد يمهد لنهضة جديدة لليسار في العالم العربي» (ص٧٧).

ونذكر بعض من هذه القضايا مثل: بناء الدولة الديمقراطية الحديثة. تحقيق التقدم الإقتصادي. التنمية الإجتماعية والبشرية. الإهتمام بالشباب تنشئة وتعليماً. حقوق المرأة. الإهتمام بالبيئة. القضية الفلسطينية. حماية الأقليات في العالم العربي. التعاون بين قوى التغيير في العالم العربي.

ومع تقديري الكبير لكل ما تم استعراضه من قضايا مقترحة لبرنامج اليسار الجديد، أعتقد بأن ثمة قضيتين لم يؤت على ذكرهما: قضية النضال من أجل عالم خال من السلاح النووي. وقضية إعادة التفكير في الهيكلية المركزية والمقفلة لأحزاب اليسار باتجاه اعتماد النسبية في التمثيل لمختلف الآراء والإجتهادات.

وسأسمح لنفسي في الختام، أن ألخص كل ما ورد من قضايا في كلمة واحدة هي أن على قوى اليسار أن تلج الحداثة من بابها العريض. وعليها بعد التصالح مع ذاتها وواقعها، وأن تعترف- إن أرادت ألا تتخلف عن حركة الحياة- بأن العولمة هي ظاهرة موضوعية ذات اتجاه تقدمي وبأن الوقوف في وجهها يعتبَر موقفاً رجعياً.

وعليه، فهذه القوى منوط بها أن تنخرط بقوة في هذه العولمة، وتناضل بكل الأشكال وفي كل الساحات لأنسنتها كما ورد في متن الصفحات الأخيرة من القسم الأول من الكتاب.

نشر في مجلة الأفق اللبنانية في حزيران ٢٠١٠